تلقى لغة أبي العلاء في التراث النقدي

أ. علي حمدوش

جامعة تيزي وزو

اتخذ دارسو المعري من ديوانيه: اللزومايت وسقط الزند ورسائل الحكمة والأدب مرجعا يفسرون منه ما شاؤوا ويتأولون فيه ما أرادوا، وكأنما استوعبت هذه الناحية جهد الباحثين، فلم يفرغوا منها ولم يثنوا أعنة أقلامهم إلى غيرها من خصائص أبي العلاء. وأنها كثيرة ومتشعبة. وكلها جديرة بالنظر. ومن هذه الخصائص التي تجل فيها الأقلام جولتها في شاعريته أو عقيدته، أنه كان لغويا حقيقا لهذه الصفة في أوسع دلالتها. لقد اتجهت عناية الباحثين في خصائص أبي العلاء إلى ما ترك من رائع النثر والشعر وما حواه شعره ونثره من خطوات في الحياة تخالف مألوف الناس. فأرادوا الحديث في عقائده وآرائه، ولتصانيف شعره ألوانا مختلفة تشعبت في ميدان النقد والجدل.

لكن من خصائص أدب أبي العلاء التي لم تحظ بالعناية الكافية في شاعريته أو عقيدته، أنّه كان لغويا حقيقيا بهذه الصفة في أوسع دلالتها.

فمنظومه ومنثوره يشهدان أنّه قد وسع اللّغة مبحثا ولفظا، وشارك اللّغويين في عملهم وتصرفهم وجاذبهم الرأي في موضوعات النحو والصرف والاشتقاق.

يقول ياقوت: ((كان من أهل محلة النعمان من بلاد الشام، كان غزير الفضل ، شائع الذكر، وافر العلم، غاية الفهم، عالما باللّغة، حاذقا بالنحو، جيد الشعر، جزل الكلام))[1].

كان أبو العلاء المعري يعرف من نفسه ذلك العلم، به همته إلى التأليف في فروع اللّغة. وكان أهل عصره يعرفون ذلك منه، كيف لا ؟! وهو الذي ولد في بيت علم وأدب. لقد قصد مسجد المعرة وهو في صباه وأخذ العربية عن قوم من بلده كبني كوثر[2]، وحصل من العلوم على قدر ما يسرته له بلدته المعرة. غير أنّ اللّبنات الأولى في تكوينه الثقافي كانت على يد أسرته، وهم بيت علم وأدب، وأكثر قضاة المعرة وشعرائها منهم[3]. وممن روى عنهم أبو العلاء من أسرته: جدّه أبو الحسن سليمان بن محمد وكان قاضيا،

فاضلا، فصيحا، شاعرا محدثا، وجدّته أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل وكانت عالمة بالحديث، وأبوه عبد الله. وكان أديبا لغويا وشاعرا، روى عن ابن خالويه وعن جماعة من علماء حلب والمعرة[4].

أتيح لأبي العلاء في كنف هذه الأسرة العالمة أن ينهل من ثقافتها ما أعانه على نظم الشعر، وهو ابن إحدى عشرة سنة. ولمّا كانت معرة النعمان تفتقر إلى عالم مكين، يرضي طموح أبي العلاء إلى المزيد من العلم، توجّهت همّته إلى حلب حيث قرأ على محمّد بن عبد اللّه بن سعد النحوي وغيره من بني الكوثر، وأصحاب (ابن خالويه) النحوي المشهور. ويبدو أنّ أبا العلاء قد تتلمذ على أشهر علماء وأدباء وقراء عصره، وهذا ما يؤكّده أحد الباحثين ((ودخل أبو العلاء وهو لا يزال حدثا إلى حلب فقرأ الأدب والنحو على عدد من أهل العلم فيها، ثمّ قرأ على بعض مشاهير المعرة كثيرا من العلوم الدينية والعربية. وهي العلوم التي كانت متداولة يوم ذاك بين الأدباء والعلماء))[5]. أمّا رحلته إلى طرابلس الشام، فيكاد القفطي أن ينفرد بهذا الخبر دون سواه من معاصري أبي العلاء قال: ((ولمّا كبر أبو العلاء، ووصل إلى سن الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده، كبني كوثر أو من يجري مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته، وقيّد اللّغة عن أصحاب بن خالويه أيضا، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام وكانت لها خزائن كتب قد أوقفها ذوو اليسار من أهلها))[6].

سعى أبو العلاء إلى العلم سعيا، فقد رحل إلى بغداد طلبا للعلم والاستكثار فيه، وللاطلاع على الكتب التي كانت عاصمة الدولة العباسية تعج بها.

ففي سنة تسع وتسعين وثلاث مائة سافر إلى بغداد، وأقام بها سنة وتسعة أشهر[7]، كانت شهرته قد سبقته إلى بغداد، فلمّا قدمها، دخل على علي بن عيسى الربعي، ليقرأ عليه النحو، فقال له: ((ليصعد الإسطبل))[8]، ويقصد بذلك الأعمى، فخرج مغضبا، ولم يعد إليه لكن ابن العديم، يذكر في إنصافه، أنّه أخذ العلم عن أبي الحسن علي بن الربعي، وأبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري المعروف بالواجكا، وأبي عبد الكريم بن الحسن السكري النحوي اللّغوي[9]. وذكره ابن العديم في عداد الشيوخ الذين أخذ المعري اللّغة والنحو عنهم قال: ((وسافر أبو العلاء إلى بغداد سنة تسع وتسعين للاستكثار من

العلم، فأخذ بها على أبي الحسن علي بن عيسى الربعيّ، وآبى أحمد عبد السلام بن الحسن البصري المعروف بـ (الواجكا) وأبي علي عبد الكريم بن الحسن بن حكيم النحوي اللّغوي)) [10].

من الثابت أنّ أبا العلاء قد ورد بغداد سنة تسعٍ وتسعين وثلاث مئة، وأنّه أقام بها سنة وتسعة أشهر، أو سنة وسبعة أشهر قضاها في الاطلاع على كتب "دار العلم" أغنى مكتبة في عصر. ولقي عددًا من رجالات بغداد وشيوخها، منهم الشريف المرتضى وأخوه الرضي، ومنهم عليّ بن عيسى الربعي وعبد السلام البصري ناظر دار العلم. قال ابن العديم: ((وبلغني أنّه إنّما دخل بغداد لتعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد ولم تكن رحلته لطلب الدنيا)) [11]. وقد أكّد المعري رحلته إلى بغداد في أكثر من موضع من كلامه. ومهما يكن من احتفال أهل بغداد بمقدم أي العلاء إليهم، سواء أصح احتفالهم به أم لا –فإنّ الرجل حظي بما كانت تصبو إليه نفسه من حبّ الاطلاع والتزود بالمعرفة والعلم بتردده على مكتبه دار العلم، حيث تزود من معارفها وما طاب له. واجتمع بكثير من علماء بغداد وقرأ عليهم شعره، وتجاذب معهم مختلف المسائل التي كانت تهمه، إلاّ أنّ رجلا كأبي العلاء، أوتي من رهافة الحس، ورقة الشعور قدرا كبيرا، لم يستطع البقاء في بغداد، إثر الحادثتين اللّتين حدثتا له فيها، وكانت الأولى، وسببها الحسد بعد انتشار صيته وعلو شأنه، وقد ذكرناها آنفا. أمّا الثانية، فكانت تعصبه للمتنبي، وما حصل له في مجلس الإمام المرتضى من الإمام وجلسائه، ولعلّ هذه الحوادث، التي جرت له، علاوة على سماعه نبأ وفاة والدته عجّلت بعودته إلى المعرة، بعدها كان عازما على أن يقيم فيها آخر الدهر، على الرغم من أنّ حزنه على بغداد، كان شديدا حين فارقها. لقد أفاد المعري كثيرا من هذه الرحلة، إذ عرضت عليه كتب بغداد، فوعاها حفظا وفهما. قال ابن العديم: ((ثمّ إنّه بعد ذلك بعد ما قابل الرضي والمرتضي طلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد، فأدخل إليها، وجعل لا يقرأ عليه كتاب إلاّ حفظ جميع ما يقرأ عليه)) [12].

إنّ حبّه للعلم جعله دائم السعي في طلبه، فلا غرابة إن كان مضرب المثل في علمه وأدبه، وقد شهد بعلمه مشاهير معاصريه. ومنهم تلميذه التبريزي الذي يقول عنه: ((.. ما أعرف أنّ العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري))[13].

يقول ابن فضل اللّه العمري: ((كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف، متبحرا في اللّغة، متسع النطاق في العربية))[14]. ويقول البغدادي: إنّه ((كان عالما باللّغة حافظا لها))[15]، ويقول ويضيف ابن الجوزي: أنه: ((مع اللّغة، وأملى فيها كتبا، وله بها معرفة تامة))[16]، ويقول الذهبي: إنّه ((كان عجبا في الاطلاع الباهر على اللّغة وشواهدها))[17].

إنّ هذه النصوص المقتبسة من المصادر العربية القديمة، لشهادة على ما كان يتمتع به من ثقافة واسعة في اللّغة، إذ لم تكن هناك شاذة إلاّ وهو يعرفها ويعرف شواهدها في النثر العربي.

كانت رحلة أبي العلاء إلى بغداد نهاية تطوافه. عاش فيها عزلته بعد أن تحطمت آماله على صخرة الواقع الأليم، الذي كان يحيط به فيها. وقد يرى بعض الباحثين أن أبا العلاء: ((كان من اليسير عليه، أن يعيش ببغداد ألوانا من العيش وهو واثق بالظفر والنجاح، كان يستطيع أن يعيش عيشة الشعراء، فينال من سراة العراق ما يكفل له الثروة والغنى، وكان يستطيع أن يعيش عيشة اللّغويين، وأن يحيا حياة الفلاسفة في عصره، ولكنه انصرف عن ذلك كلّه، فلم يرض إلاّ هذا السجن الذي أنفق بقية حياته فيه))[18].

فإن كان أبو العلاء زاهدا في الحياة وملذاتها فإنّه لم يستطع أن يزهد في العلم والتأليف، اللذين قد ملكاه واستأثرا به. كلاهما يكلفه عشرة الناس لاحتياجه إلى من يقرأ له ويكتب عنه. فالرجل لم يكد يبدأ سيرته الشاقة بمعرة النعمان حتّى أخذ الناس يسعون إليه وأخذوا يدرسون عليه اللّغة وآدابها. لقد أصبح شيخا يؤمّه التلاميذ للاستفادة ويسعى إليه العلماء للاستزادة. ولعلّ من المفيد أن نذكر أنّ أكثر كتب أبي العلاء قد ألفت بعد هذه المرحلة من حياته فقد ذكر القفطي في (أنباه الرواة) ((أنّ المعري لمّا عاد من بغداد إلى المعرة، لزم منزله وشرع في التصنيف وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق))[19]. وأورد ابن العديم القول الآتي لأبي العلاء: ((لزمت مسكني منذ سنة لأربع مائة واجتهدت

على أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده، إلاّ أن أضطر إلى غير ذلك فأمليت أشياء، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن الله معونته))[20].
لقد أخذ عن المعري خلق كثير، قال ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار): ((وأخذ عنه خلق كثير لا يعلمهم إلاّ اللّه عزّ وجل كلّهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحر، وديانات واستفادوا منه، ولم يذكره أحد منهم بطعن ولم ينسب حديثه إلى ضعف ولا وهن)) [21].

كان أبو العلاء واسع الاطلاع على أساليب البلغاء، بصيرا بأسرار البلاغة، عالما باللّغة، محيطا بالغريب والنادر منها، وهذا الاهتمام يعود إلى ما كان يملكه من ثروة ضخمة من اللّغة، لا يكاد يضارعه في ذلك أحد بشهادات معاصريه الذين يذهبون إلى أنّ العرب لم تنطق بكلمة لم يعرفها الشيخ، وأنّه في المشرق يقابل ابن سيدة في المغرب واضع المخصص والمحكم[22]. فالاهتمام اللّغوي الذي نراه منتشرا في أدب أبي العلاء المعري، لا يكاد يوجد عند شاعر آخر أو أديب، فجاءت أعماله حافلة بأساليب التعقيد اللّغوي والإغراب الذي يعتمد على خفاء المعنى المقصود من ألفاظه، ممّا يدفع القارئ إلى الاستعانة بالمعاجم لتوضيح معانيها الدّقيقة، ولعلّ هذا من أسباب الاختلاف بين الباحثين في أدب أبي العلاء المعري في تفسير بعض أقواله.

إنّ أهمية اللّغة عند المعري لم تكن وسيلة التعبير فقط، بل كانت أداة للتعليل والإدراك الكلي. إنّه تجاوز جميع الطرائق والمناهج النظرية التي درج عليها واضعو المعاجم اللّغوية في عصره. فكان يؤمن بأن اللغة توقيف وليست الاصطلاح بشريا[23]. دخل بعالمه اللّغوي إلى المجهول الكوني والغيبي والحيرة التي زادت في مأساته جرّت وراءها طائفة من التساؤلات: أليست في اللّغة ظاهرات الطبيعة والوجود نفسها؟. من مصدرية واشتقاق أي من أصل وتوليد؟... أليس في اللّغة العربية كل مظاهر التغير في عالم الكون والفساد مثل الأعراب المتغير بالعوامل ؟، أليس في اللّغة أشياء الحياة كلها من تعدية ولزوم؟. أليس في اللّغة جسم وروح كاللفظ والمعنى؟! أليس في اللّغة عالم غيب وعالم شهادة في المضمر والمظهر، قال:

ما زال ملك اللّه يظهر دائبا إذ آدم وبنوه في الإضمار.[24]

أليس في اللّغة نثر ونظم مثلما في الوجود حل وعقد؟... إذن ففي طبيعة اللّغة حياة ومجهول، بل هي عالم أكثر تعبيرا عن عالمنا الخفي.

رأى المعري في اللّغة إعرابًا وبناءً أي زمانًا ومكانًا وحركة وسكونًا أي وجودًا وعدمًا وتغيرًا قال:

والفتى كاسمه، المنصرف هذا الجسم، يلقي التغيير والتقليبا[25]

ورأى فعلا صحيحًا ومعتلا أي كونًا وفسادًا:

أعللت علة، قال وهي قديمة أعيى الأطبة كلهم إبراؤها[26]

وعلى ضوء قواعد البلاغة والتشبيه والمجاز بكل أنواعه والكناية والجناس يدرس الحياة فيما هي واقع وفيما هي أسمى. قال:

تجانست البرايا في معانٍ ولم يجلب مودتها الجناس[27]

كما يدرس خفايا الإنسان وخباياه في ميدان العروض والقافية، إذ لم يكن يقصد من ورائها الزخرف والتنميق على عادة من سبقه كابن العميد، بل ما قصده المعري من هذه العناصر التي ذكرناها هو الطريقة التي اعتمدها في التفكير. ولهذا نجد كثيرًا من أعماله قد أخفت مراميها على عامة الناس، ليس في عصره فقط بل هذا الغموض قد أثر حتّى في الدارسين المحدثين، الذين تعودت وجهات نظرهم في تناول آثار المعري، وبخاصة في موضوع عقيدته الذي تضاربت الآراء فيه.

يحدّثنا أبو العلاء نفسه في هذا الموضوع، في كتابه "زجر النابح" كيف تحامل عليه معاصروه ورموه بالإلحاد، نتيجة قصورهم في البحث اللّغوي ومعرفة خفايا اللغة وأسرارها وما تحمله من رؤى فكرية وكونية.

ومن يعد إلى هذا الكتاب "زجر النابح" يجد أبا العلاء يرد فيه على الذين اتهموه بالإلحاد في عصره. سوف يشده الباحث حول كلّ ما كتب عن هذه الشخصية وألصق بها من تهم نتيجة عدم فهم الدرس اللّغوي والمناحي، التي كان يرمي إليها أبو العلاء.

كانت طريقته المعري في الدفاع عن نفسه وإبعاد الشبهات والمطاعن عن شعره تقوم على توضيح المعنى الذي قصد إليه في كل بيت، جعله الطاعن غرضا له، فأساء فهمه وحرفه عن موضعه. وكان جلّ اعتماده في هذا على ثقافته الواسعة واطلاعه

العميق الشامل على كل ما يمت بصلة إلى العلوم الإسلامية واللّغوية ومعرفته العميقة بأساليب البيان العربي، مؤكدًا أنّ كلامه وإن أتى ظاهره عامًا شاملاً فإنّه خرج على الخصوص، أو أنّ فيه حذفًا، أو أنّه جاء على سبيل العكس أو على سبيل المجاز. كان من الطبيعي أنّ يكثر من الاستشهاد على صحة رأيه بما كان يملكه من ثروة لغوية لا ينافسه فيها أحد.

يقول مثلا في تعليقه على البيت الآتي:

لعلّ قران هذا النجم يثني إلى طرق الهدى أمما حيارى[28]

قال أبو العلاء في الرد على من اعترض عليه في هذا البيت المعنى: لعلّ الله يهديهم بطلوع هذا النجم، وهذا على المجاز كما تقول: "أحسن إلي يوم الجمعة"، ولم يحسن إليك وإنّما ذلك الإحسان من الله فيه. وهو كقولهم: "ليل نائم"[29]. ومن الأمثلة التي تخبرنا على تفقهه في علوم اللّغة وعلم البيان والأديان، يقول في الرد على من اعترض عليه في هذين البيتين[30]:

كتاب محمد وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور

نهت أمما فما قبلت وبارت نصيحتها فكل القوم بور[31].

"كتاب محمّد" مبتدأ غير متعلق، وما بعده عطف عليه، إلى قوله "الزبور"، ثمّ جاء الخبر في قوله: "نهت أمما... البيت" و"نهت" راجعة إلى الكتب. وهذا بيّن مشهور، لأنّ كلّ أمّة لم تقبل أمر نبيها، وإنّما قبله بعضهم.

إنّ الإسلام هو أشرف الملل، قد أظهر المنتسبون إليه أشياء هي محظورة فيه، كشرب الخمر والمراباة وغير ذلك من المناكير، وهم مع ما يفعلون يأملون الرحمة ويرجون العفو ويقرون بالوحدانية، وإنّ الله لعفوٌ رحيم. وإنّما أتى هذا المنكر من جهله بأحكام المنظوم وقلة خبرته باتصال الجمل بعضها ببعض.[لعلّه قرأ البيت] الأول منها دون أن يتبعه بالآخر فظنّ – ومعاذ اللّه أن يذهب المؤلف إلى ذلك – أنّ البيت الثاني تفسير للأوّل، وليس كما ظنّ. وإنّما هذا فن من القريض يسمى الإغرام وهو دون التضمين[32].

إنّ هذه الأمثلة أوردناها حول موقف أبي العلاء من خلال كتاب (زجر النابح) وما هي إلاّ عيّنات بسيطة ممّا قيل حول هذا الموضوع الذي يتطلب دراسة متخصصة عن عوالم أبي العلاء اللّغوية.

وعى المعري العربية حفظا واستيعابا وتعمقا، يشهد له بذلك ثروة لغوية ضاقت بطون المعجمات عن الإحاطة بها. وطبيعي لمن يكون له هذه الثروة من اللّغة أن يهتم بفن بالغريب ويبتعد عن المبتذل. فهو كان شديد الممارسة للألفاظ، فلم يجد فيها من الوحشة والغرابة ما يجد من كان أقل منه دراسة. وهذا يدل على أنّه لم يتعمّد الغريب ليستر تحت ما يريد من سخرية أو تهكم. ويقوّي هذا الكلام، أنّ أبا العلاء صرّح في نظمه ونثره بما هو أولى بالكتمان والإخفاء من غيره، فقد جاهد بما يعتقده ويأباه في باب العقائد، واعترض على المذاهب والنحل وانتقد الحكومات والعادات والأخلاق ولم يتعمد إخفاء شيء من ذلك تحت كلمة حوشية أو لفظة غريبة. لقد استغلّ اللّغة على حد قول بول فاليري (Paul VALLERY) إلى أبعد الحدود مبتعدا عن الكلام العادي بواسطة الأصوات والأوزان والأساليب البيانية، وكل الوسائل التي تتيحها لصورة البشرية. وهذا ما يراه الفلاسفة المسلمون العرب، أن اللغة الشعرية لا تهدف إلى الإفهام وحده، بل إلى التعجيب والإلذاذ. ومن ثمّ تتجاوز الدّلالات الوضعية الثابتة للألفاظ وتنحرف عمّا هو مألوف وشائع في اللّغة دلاليا وتركيبيًا وهنا يصبح استعمال اللّغة خارجًا عن الأصل، باحثا عن التخييل[33]. وهي نظرية لا تختلف عن المفاهيم السائدة في العصر الحديث حول مفاهيم نظام الانزياح وخرق قانون نظام اللّغة وتوليد الصور والمعاني الجديدة. إنّ هذا التخييل الذي أشار إليه الفلاسفة يعدّ جزءًا من البناء الكلي لرؤية الكاتب، لأنّ اللّغة حسب لوسيان جولدمانLucien GOLDMANN هي اللّغة التي تتشكل من خلال العمل الفني، والّتي هي جزء من رؤية الكاتب إلى العالم.

إذا كانت ظاهرة التعقيد سمة بارزة في الشعر العربي بعد القرن الثالث للهجرة، حيث أصبح النّاس يعنون بالشكل أكثر مما يعنون بالحقيقة نفسها، فقد طغى التصنع في جميع شؤون الحياة، أترفت الحياة العربية وأترف الفكر العربي، ولم يعد هناك إلاّ التصنع والتكلّف في شؤونها، وكانت عنايتهم بألفاظهم تفوق عنايتهم بمعانيهم. يقول الجاحظ:

((أمّا أنا فلم أر قطّ أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنّهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا ومتوحشا ولا ساقطا سوقيا))[34]. ويضيف: ((وأن الكتاب لا يقفون إلاّ على الألفاظ المتخيرة والمباني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كلّ كلام له ماء ورونق: وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور غمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقدام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني[35])). لقد انعكس هذا التصنّع في الفن فالتجأ كثير من الأدباء إلى تعقيد تعبيرهم، حتّى كاد الشعر أن يستحيل إلى عمل لغوي.

أمّا المعري فقد خالف من سبقه، لم يعتمد على الأساليب التي انتهجها سابقوه، بل اتبع طريقة جديدة، لها خصوصيتها، نابعة من مرجعيته الثقافية، التي كان يتمتع بها دون سواه.

جاء أبو العلاء في مرحلة جديدة، وهي مرحلة كانت تفترق افتراقا شديدا مما سبقها من مراحل، إذ كان أصحابها ما يزالون يصعّبون نثرهم ضروبا من التصعيب. فكان يعرض عليهم بعض ما استطاع أن يصل إليه من هذه الضروب كي يتفوّق عليهم ويستعلي بآثاره على آثارهم وقد حقّق ذلك عن طريق اللّفظ الجديد والنزعة التعليمية.

أمّا الألفاظ، فقد ألزم المعري نفسه السجع في معظم نثره. وكانت له عناية شديدة بالتجنيس، واضطره هذا الأمر إلى تكلف ألفاظ الغريب التي لم تأت عفو الخاطر بل نتيجة لما أملته عليه نزعته التعليمية ومصادره الثقافية.

إن ثروته اللّغوية التي أكسبها هي من مصادر كثيرة ومتنوعة منها القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر القديم إضافة إلى مصطلحات العروض والنحو والصرف وغير ذلك من المصطلحات العلمية والرموز التاريخية والأخبار الأسطورية، التي جاءت متضمنة في ثنايا أعماله النثرية والشعرية. وهذا ما يتطلب من القارئ دراية كبيرة في الثقافة حتى يتسنّى له فكّ ألغازها.

لقد كان بصيرا بغريب الألفاظ وتفسير المعاني ولبقا في توضيح الإرشادات فاتجه إلى دواوين الشعر يشرح غامضها ويكشف خافيها. وممّا يذكر من كتبه في ذلك "معجز

أحمد" أو "اللاّمع العزيزي" وهما شرح ديوني المتنبي، و"ذكرى حبيب" وهو شرح الغريب في شعر أبي تمام، و"عبث الوليد"، للبحتري بالإضافة إلى الشروح والتفاسير التي أولاها إلى أعماله حتّى لا يكون علة على الناس بل خادمهم. من مصنّفاته التي قدم لها شروحًا نجد "ضوء السقط"، و"راحة اللّزوم" و"السادن" إلى غير ذلك من الرسائل العلمية والكتب التي اختصت في مجال النقد كشرح كتاب "زجر النابح" الذي ذكرناه آنفا.

إذا استثنينا ما كان من صنيع أبي العلاء في (رسالة الملائكة)، جاز لنا أن نقول إنّه ليس فيما نملك من آثاره تأليف لغوي محض، أو بحث في كتاب مستقل وإنّما استثنينا (رسالة الملائكة)، لأنّها على ثوب خيالي، ذات أسلوب لغوي محكم في اشتقاق أسماء الملائكة وما إليها ممّا يكون في الدار الأخرى. وهذا الصنيع نفسه ينطبق على (رسالة الغفران) وما تحمله من خصائص لغوية تمد الدارس المختص بما يصبو إليه. أمّا النزعة التعليمية التي طبعت أعماله، وكان لها أثرها في تعمده الغريب، حيث يتاح ذلك له لما يجد فيه من تلبية لحاجة تلاميذه إلى الاطلاع على أشتات اللّغة، ووطد هذه النزعة في نفسه طول مصاحبة التلاميذ له. وقد تحدثت الأخبار أنّه كان له عشرة من الكتاب يملي على كل واحد فنونا غير ما يملي للآخرين وهم يكتبون[36].

وبعد فهل لنا أن نمضي في التسليم بوجود النزعة التعليمية لدى المعري، وأن نسهب في توضيح العلاقة بين هذه النزعة وشغفه بالغريب دون أن يستوقفنا قول المعري نفسه في مصطلح فصوله:

((علم ربنا ما علم، أني ألفت الكلم، أصل رضاه المسلم وأتقي سخطه المؤلم، فهب لي ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب))[37]. أمّا ظاهرة المصطلحات العلمية، كمصطلحات النحو والصرف والتورية والإلغاز والنجوم، فلا يعرف في أدباء العرب من استوعب في كلامه من أسماء هذه المصطلحات ما استوعبه المعري وكأنّه أحاط بكل ما يعرفه العرب من أسمائها وما يعتقده النحاة فيها، حتّى كاد المصطلح العلمي أن يكون أحد أركان التعبير لدى المعري، يعتمد عليه في ابتكار المعاني وتفريعها ويتخذه وسيلة لتزيين الكلام بالتورية والإلغاز. ومن هنا كانت المزاوجة العلمية الأدبية من

أهم السمات العامة لأسلوب المعري، الذي فتح باب الاجتهاد لمن جاء بعده من علماء القرون الآتية له.

إنّ الحديث عن أبي العلاء اللّغوي لا يستقل به درس واحد، لا سيّما في ميدان نثره الذي جاء حافلا بهذه المصطلحات والمعارف المبتكرة والمعبرة عن مصدر أبي العلاء في علوم اللغة وصنوفها. عسى أن يكون في هذه الإشارة ما يشجع الباحثين المختصين على مواصلة البحث حول هذه الشخصية التراثية العالمة.

الهوامش:

1- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، المجلد الأوّل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991، ص397.
2- طه حسين وآخرون: إنباه الرواة عن أنباء النحاة للقفطي، (تعريف القدماء)، ص 30.
3- المرجع نفسه، ص 21.
4- طه حسين وآخرون: الإنصاف والتحرّي في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي، لابن العديم، (تعريف القدماء)، ص 492.
5- عمر فروخ: أبو العلاء المعري، دار الشروق، ط1، أيار، 1960، ص 13.
6- محمد طاهر الحمصي: مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها، ط 1، دار الفكر، دمشق، 1986 ص 23.
7- طه حسين وآخرون: معجم الأدباء لياقوت الحموي، م 1، (تعريف القدماء)، ص 17.
8- طه حسين: المجموعة الكاملة، ص 157.
9- طه حسين وآخرون: مرآة الزمان لابن الجوزي، (تعريف القدماء)، ص 515.
10- محمد طاهر الحمصي: مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها، ص 36.
11- طه حسين وآخرون: الإنصاف والتحرّي في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعري بن العديم (تعريف القدماء)، ص 68.
12- المرجع نفسه، ص 544.
13- المرجع نفسه، ص 569.
14- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 268.
15- البغدادي: تاريخ بغداد، ج 4، ص 240.
16- طه حسين وآخرون: المنتظم لابن الجوزي، (تعريف القدماء)، ص 18.
17- طه حسين وآخرون: عن تاريخ الإسلام للذهبي، (تعريف القدماء)، ص 190.

18- طه حسين: المجموعة الكاملة، ص 169.

19- طه حسين وآخرون: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، (تعريف القدماء)، ص32.

20- طه حسين وآخرون: الإنصاف والتحري لابن العديم، (تعريف القدماء)، ص 525.

21- طه حسين وآخرون: مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، (تعريف القدماء)، ص 222.

22- خليل إبراهيم أبو دياب: المعمار الفنّي للّزوميات، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص 91.

23 - عبد الله العلايلي: المعري ذلك المجهول، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص36.

24 - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص 275 .

25 - المصدر نفسه، ج 1، ص 96.

26 - المصدر نفسه، ص 43.

27 - المصدر نفسه، ج 2، ص 45.

28 - أبو العلاء المعرّي: زجر النابح، تحقيق أمجد الطرابلسي، مجمع اللغة العربيّة، دمشق، 1982، ص 17.

29 - المصدر نفسه، ص 18.

30 - المصدر نفسه، ص 55.

31 - المصدر نفسه، ص 55.

32 - المصدر نفسه، ص 56.

33 - جابر عصفور: مفهوم الشعر، القاهرة، 1978، ص 166.

34 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص137.

35 - المصادر نفسه، ج 4، ص 24.

36 - طه حسين وآخرون: المنتظم لابن الجوزي، (تعريف القدماء)، ص 155.

37 - أبو العلاء المعرّي، الفصول والغايات، تحقيق محمود زناني، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، 1977، ص 62.